بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله شرع لنا دينًا قويما، وهدانا إليه صراطًا مستقيما، ووعد من لزم الصراط أجراً جزيلاً وثوابًا عظيما، وتوعد من حاد عنه بأن له عذابًا أليما، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وكفى بالله ناصراً ومُعينا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله كان بالمؤمنين رؤوفًا رحيما؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه تسليمًا عظيما. أما بعد:

فإن أعظم ما يجب على العبد أن يُعنى به في هذه الحياة الاستقامة على طاعة الله ولزوم صراطه المستقيم، وعدم الحيدة عنه والانحراف عنه ذات اليمين وذات الشمال، قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢]، وقال جل وعلا: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت:٣٠] وفي الحديث الصحيح عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ قَالَ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»(١).

وفي هذا جمع بين العلم والعمل، العقيدة والشريعة، الإيمان والإسلام؛ فإن قوله سبحانه وتعالى ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ ومثله قوله في الحديث «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ» فيه الاعتقاد الذي هو الأساس الذي يُبنى عليه دين الله تبارك وتعالى؛ بالإيمان بالله عز وجل وهو أصل أصول الإيمان، وبالإيمان بكل ما أمر سبحانه وتعالى بالإيمان به من أصول الإيمان فإنها تابعة لهذا الأصل العظيم، قال تبارك وتعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، فالإيمان بالملائكة والإيمان بالكتب والإيمان بالرسل والإيمان باليوم الآخر أصولٌ تابعة لأصل الأصول وأعظمها وهو الإيمان بالله؛ لأنَّ من الإيمان بالله سبحانه وتعالى أن تؤمن بما أمرك الله سبحانه وتعالى بالإيمان به من أصول الإيمان وقواعده العظيمة وأسسه المتينة كالإيمان بالملائكة والإيمان بالكتب والإيمان بالرسل والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره من الله تبارك وتعالى.

(١) أخرجه مسلم (رقم/ ٣٨).

وقوله في الآية ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ وفي الحديث «ثُمَّ اسْتَقِمْ»؛ أي على طاعة الله عاملًا بشرائع الإسلام وواجبات الدين وفرائضه العظيمة محافظًا عليها تمام المحافظة مداومًا على طاعة الله سبحانه وتعالى إلى أن يتوفاك الله وأنت على ذلك؛ كما قال الله سبحانه ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] أي الموت وكما قال الله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢]، والمرء لا يدري متى يموت والمعنى: استقيموا على طاعة الله إلى أن يأتيكم الموت وأنتم على هذه الاستقامة وعلى هذا العمل بطاعة الله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر سبحانه وتعالى الثمرة لهذا الإيمان ولهذه الاستقامة على الطاعة قال: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ والمراد بالملائكة أي ملائكة الرحمة الذين يتنزلون بالخير والبشارة لعبد الله المؤمن بما يسرُّه.

﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾؛ ثلاث كلمات تتنزل بها ملائكة الرحمة لهذا الذي آمن واستقام على طاعة الله، وقد قال غير واحد من المفسرين: إن هذا التنزل يكون عند نزع الروح وإخراجها من البدن، عندما يأتي ملك الموت وأعوانه لقبض روح العبد المؤمن تتنزل ملائكة الرحمة حينئذ بهذه البشارة العظيمة؛ نفي الخوف ونفي الحزن ودخول الجنة، ونظير هذا قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف:١٣-١٤]. فالمعنى في هذين السياقين واحد؛ نفي الخوف ونفي الحزن والبشارة بالجنة.

والخوف والحزن عندما يُذكرا معًا يراد بالخوف ما يتعلق بالمُستقبل، والحزن ما يتعلق بالماضي وما هو تاركه. وهذا الذي تقبض روحه سيترك شيئًا ويقبل على شيء، سيترك هذه الدنيا، ويترك أهله وولده، ومصالحه وأعماله؛ ففيما يتعلق بما هو تاركه يقال «لا تحزن»، وفيما هو مقبل عليه يقال له «لا تخاف»؛ وهذه فيها طمأنة للمؤمن ومؤانسة وادخال سُرور عظيم على قلبه، ولذا ـ والله أعلم ـ تُرى وجوه بعض الموتى مُبتهجةً يظهرُ عليه البِشر والسرور. وكيف لا يظهر عليه الفرح وهو يتلقى هذه البشارة العظيمة. وقبض الروح يُعدُّ أوَّل منازل الآخرة فمن ماتَ قامَت قيامته، وانتهت دُنياه وبدأتْ آخرته، نعم بدأت الآخرة بنعيمها أو عذابها، ولهذا ليس بين

المؤمن وبين الجنة إلا أن يموت، وليس بين الكافر وبين النار إلا أن يموت «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»(٢) أي بمجرد الموت، فالنعيم يبدأ من الموت والعذاب يبدأ من الموت، وقد قال الله سبحانه وتعالى عن آل فرعون ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦]، أي في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٦]، فالعذاب يبدأ من الموت، والنعيم أيضا يبدأ من الموت.

وهذه المعاني ينبغي أن تكون حاضرة في قلب العبد وأن يهيئ نفسه لذلك اليوم، وهو آت ولابد، وإتيانه قد يكون بعد يوم، وقد يكون بعد يومين، وقد يكون بعد أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو سنوات الله أعلم؛ ولهذا ينبغي أن يكون العبد مستعدًا متهيئًا لذلك اليوم العظيم كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحشر:١٨]، وإذا كان هذا الأمر حاضرًا في قلب العبد وذكَّر نفسه بهذا الموقف العظيم فإن ذلك بإذن الله سبحانه وتعالى يفتح له بابًا عظيما في الاستقامة والمداومة على الطاعة إلى أن يتوفاه الله سبحانه وتعالى على ذلك.

فإن قال قائل: لو ذُكر خلاصة في هذا الباب مما يعين العبد على هذه الاستقامة على طاعة الله سبحانه وتعالى إلى أن يموت حتى يكون من أهل هذه البشارة وأهل هذا الخير وأهل هذه البركة والتنزل من ملائكة الرحمة؟ يقال يمكن تلخيص الأمور المعينة على الاستقامة في نقاط:

* **الأول: كثرة الدعاء** وهو أهم ما يكون في هذا الباب؛وهو مفتاح كل خير وسعادة ورفعة في الدنيا والآخرة، فعليك بالإلحاح على الله جل وعلا وكثرة سؤاله أن يثبتك على دينه القويم وأن يهديك صراطه المستقيم، كالدعوة التي في القرآن ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران:٨]، وكالدعوة العظيمة التي كانت من أكثر دعاء نبينا عليه الصلاة والسلام «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»(٣).

* **الأمر الثاني: المجاهدة للنفس**، والنفس حرون والأهواء عديدة والشهوات متعددة، فلا بد من حزمٍ وعزم مع الاستعانة على ذلك بالله جل وعلا. فتحتاج إلى مجاهدة مستمرة وإلا تفلتت هنا وهناك، وقد قال الله

(٢) أخرجه البخاري (رقم/ ٤٤٩٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٣) رواه الترمذي في جامعه (٢١٤٠) والإمام أحمد في مسنده (١٢١٠٧) وصححه الالباني في «صحيح الجامع» (رقم/ ٤٨٠١).

سُبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩]، وصحَّ عن نبينا ﷺ أنه قال: «وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ»(٤)، فالنفس تحتاج إلى مجاهدة مستمرة ودائمة.

فمن جاهد نفسه على الاستقامة مستعينًا بالله تبارك وتعالى فهو ولابد - بإذن الله تبارك وتعالى - بالغٌ تمام الاستقامة أو مقارب، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا»(٥)؛ فجعل البشارة عليه الصلاة والسلام لمن سدد أو قارب، والمسدِّد هو الذي أصاب الاستقامة في تمام حقيقتها وأبهى صورها وأتم حللها، والمقارِب هو الذي يجاهد نفسه على بلوغ تمام الاستقامة ولماّ يكمِّلها وهو قريب من الكمال فلا يزال مجاهدًا نفسه على ذلك.

فعلينا أن نُجاهد أنفسنا على السداد وهو كمال الاستقامة، ومن لم يبلغ السداد فعليه بالمقاربة، وليحذر أشد الحذر من الانحراف عن طريق الاستقامة.

* **الأمر الثالث: أن يعتني بالعلم الشرعي** وأن يكون له حظ منه في كل يوم من أيامه؛ لأن العلم نور لصاحبه وضياء، وإذا خلت النفس من العلم تراكمت عليها الظلمات، ولهذا من أعظم خطوات الشيطان في حرمان العبد من الخير أن يزهِّده في العلم وأن يبغِّض إليه طلب العلم وأن يكرِّه إليه مجالس العلم، لأن الشيطان يدرك أنه إذا أبعده عن العلم أبعده عن الخير وحال بينه وبين الخير، كما قال ابن الجوزي رحمه الله في كتابه «تلبيس إبليس»(٦): «اعلم أن أول تلبيس إبليس عَلَى الناس صدُّهم عَنِ العلم لأنَّ العلم نور؛ فإذا أطفا مصابيحهم خبطهم فِي الظُّلَم كيف شاء»

* **الأمر الرابع: أن يعتني بتخير الأصحاب** والإخوان الذين يعينونه على الاستقامة ويشدُّون من أزره في الطاعة؛ ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ»(٧)؛ أي ليتفقه فيمن يُصاحب.

(٤) أخرجه الترمذي (رقم/ ١٦٢١)؛ وأحمد (رقم/ ٢٣٩٥٨) واللفظ له، عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (رقم/ ٥٤٩).
(٥) أخرجه البخاري (رقم/ ٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) ص ٣٣٠
(٧) أخرجه أبو داود (رقم/ ٤٨٣٣)؛ والترمذي (رقم/ ٢٣٧٨)؛ وأحمد (رقم/ ٨٤١٧) واللفظ له، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في تعليقه على «المشكاة» (رقم/ ٥٠١٩).

* **والأمر الخامس: أن يغلق المنافذ التي تبعده عن طريق الاستقامة** وهي كثيرة ولاسيما في هذا الزمان؛ فليحذر أشد الحذر من منافذ الشر وأبواب الشر ومداخل الشر، يحذر أشد الحذر من كل أمر يخرجه عن طريق الاستقامة، وقد خط النبي ﷺ خطا مستقيمًا وقال: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، ثُمَّ خط على جنبتيه خطوط وقال: «هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»(٨)، وقوله «شَيْطَانٌ» هذا يشمل شياطين الإنس والجن كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

* **الأمر السادس وهو مستفاد من الآية الكريمة: تذكُّر البعث والحساب** والوقوف بين يدي الله والارتحال من هذه الحياة الدنيا والانتقال إلى الدار الآخرة، كما قال علي رضي الله عنه: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلاَ عَمَلٌ»(٩).

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يرزقنا أجمعين الاستقامة على طاعته والمحافظة على عبادته، وأن يعيذنا من الضلال، وأن يجنِّبنا الزيغ، وأن يعيذنا من الشيطان، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ومن شر كل ذي شر ومن شر كل دابة هو آخذ بناصيتها. اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها. اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفة والغنى اللهم إنَّا نعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء. اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.
اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

(٨) أخرجه أحمد (رقم/ ٤١٤٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وحسنه الألباني في تعليقه على «المشكاة» (رقم/ ١٦٦).
(٩) أخرجه البخاري (١١/ ٢٣٥ - فتح) معلقا.

الاستقامة

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار المحجة
شارك في الدعوة إلى الله بنشر هذه المطوية لتكون لك حسنة جارية